د. حاتم الصكَر
جريدة العالم 25 نيسان 2013 العدد 802

http://www.alaalem.com/index.php?news=%D8%E5%20%C8%C7%DE%D1..%20%DE%C7%D1%C6%20%C7%E1%D8%ED%E4&aa=news&id22=7908

طه باقر.. قارئ الطين

لا نعرف تحديدا من الذي أطلق وصف قارئ الطين على الآثاري والباحث الراحل طه باقر(الحلة، بابل 1912 - 1984) لكن الوصف لا يخطئ تلخيصه رمزيا ودلاليا، فيصوره عاكفا على ما تبقى فوق أديم وادي الرافدين من رُقُم وألواح ونقوش وأحجار، وما خُطّ فوق طين أرض السواد – وبه - من فنون وآداب وملاحم وأساطير وقوانين ولقى.

القرن المنقضي على ولادته كان مناسبة طيبة لاستذكاره في مدينته بابل التي لم يسافر بعيدا عنها في علمه وحلمه وأدبه، وفي أور التي عشق ماضيها وعاشه تحقيقا وتنقيبا ودراسة وترجمة. لكن ملحمة كلكامش تظل العمل الأهم بين أعمال طه باقر الذي لم يكتف بترجمة ألواح الملحمة ونقلها إلى لغة مواطنيها المعاصرين، بل راح يرمم ما تكسر منها بفعل الزمن ويقارن نصوصها الخالدة المتوهجة بالشعر والحكمة معا، بمتون من لغات قديمة وحديثة، بل بنواميس وشرائع استمدت كثيرا من تفاصيلها وسردها حول الخلق الأول والطوفان من ثنايا الملحمة وبرواياتها. ولم يكتف بالنقل والمقارنة المحايدة فأخذ يعلق عليها ويفسر غامضها، فكانت دراسته المستفيضة لأثر الملحمة في الفكر القديم وفي النصوص الدينية دليلا على تشبعه بالأدب الرافديني وتماهيه مع نصوصه، وإدراكه للمساحة المنبثة من الملحمة في قصص التوراة حول البدء البشري وحوادث الطوفان وسواهما من الموضوعات التي كشف طه باقر بالمحاكمة النصية المقارنة ما أخذته من نصوص الملحمة العراقية وأفكارها وطريقة عرضها. وفي تقويمه لملحمة كلكامش فنيا يقول "لعلني لا أبالغ إذا قلت إنه لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين من منجزاتها وعلومها ومتونها شيء سوى هذه الملحمة لكانت جديرة أن تتبوأ تلك الحضارة مكانة سامية بين الحضارات العالمية القديمة" وقد شبهها في إحدى دراساته بأوديسة هوميروس وإزاء هذا التقييم والتقدير للملحمة كنتاج عراقي متقدم على زمنه. سيتلقى طه باقر أعظم مكافأة تلقاها كاتب في حياته عن عمله، ألا وهو اقترانها به، وكأنه أحياها وشارك كتابها المجهولين في صياغتها. وتعمق في تعريف العالم بالحضارات القديمة الكبرى؛ فصارت الملحمة تستدعي اسمه وجهده كلما ذكرت في دراسة أو قراءة.

ترجم طه باقر كتاب كريمر من ألواح سومر المتضمنمن أوائل الأشياء التي عرفها العراقيون القدامى قبل سواهم، كالكتابة والقانون والفن والعمارة وبناء الأسوار والمكتبات ونظم التعليم وتنسيق الحدائق والمدرجات والمسرح ودور العبادة والتفاصيل الرامزة لمعبوداتهم.. وشمل اهتمامه حضارات الشرق كله لا العراق فحسب لأنه عالم شامل المعرفة والاهتمام، فكان كتابه (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة) تعريفا بحضارة مصر، ومثلها ما قدمه لآثار ليبيا القديمة خلال عمله في جامعتها أستاذا وآثاريا. ولم تكن الوطنية وإحياء مجد بلاده الغابر هما محركه الوحيد في عطائه العلمي. بل كان وراءه أيضا اعتقاده بالماضي كمنجز إنساني ولا سيما الفكر الأسطوري الملخص لنظرة الإنسان للكون والحياة والذات، وبذلك نتفهم الجانب الحضاري في عمله؛ فهو يريد للحضارة أن تكون لافتة تتكتل تحت ظلالها الجهود والرؤى لخلق حياة أفضل دون اجترار وتراجع. لذا تجاوز طه باقر الصلة المحتفية بالماضي أي وجود مفرداته كلقى وأحجار تشير لزمن ماض فحسب، ولم ير المعرفة التي تتيحها الأسطورة للبشر تسلية أو تخريفا، بل قدمها نصوصا تحمل إمكان تشخيص ما يكنُّ الفرد والجماعة معا من أحلام وما يحملون من تصورات. فكان في الجانب الآثاري يستكمل جهود زملاء من مجايليه الذين تركوا بصماتهم في وطنه مثل جواد علي في الدراسات التاريخية وعلي الوردي في الدراسات الاجتماعية وعلي جواد الطاهر في النقد الأدبي ومصطفى جواد في اللغة والتاريخ.. وسواهم.

وفي قراءته للنصوص الطينية وسواها حاول أن يغور في دلالات التشكلات الفنية والتاريخية تلك، بعيدا عن دلالاتها الوظيفية أو زمنيتها فكانت بحوثه واكتشافاته وتأويلاته تتصادى مع مكنونات مخلوقات الطين الذي ظل قارئا متبصرا له حتى رحيله واندراجه في سِفر ذلك الماضي الذي أحياه بنصاعة وموضوعية.